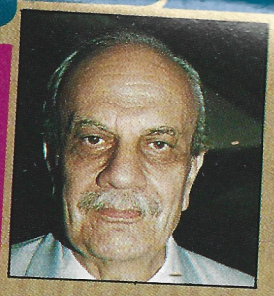

المسيحيون العرب وهزيمة المشروع الصهيوني

شهدت الاسابيع الاخيرة انطلاقاً من عيد الفصح الشرقي تظاهرتين دينيتين مسيحيتين لهما بعدهما الوطني في عاصمتين من المشرق العربي وتخصيصاً بلاد الشام: دمشق وبيروت. واهمية التظاهرتين انهما اكدتا على لسان اعلى المراجع الكنسية في ما يشبه الاجماع الذي لم ينعقد مثله من قبل على امر كهذا من مرجعية روما للكاثوليك ومرجعيات الكنائس الارثوذكسية الانطاكية والاسكندرية، اكدتا تجذّر المسيحيين في وطنهم وعروبتهم.

واذا كان هذا الامر بديهياً لأن المسيحيين المشرقيين هم مواطنون عرب منذ الوف السنين وكان لهم دورهم في اطلاق النهضة الادبية العربية في القرن التاسع عشر وبعضهم انخرط في الكفاح القومي في مواقع طليعية، فان تاكيد هذه الحقيقة باجماع المرجعيات الكنسية على اختلاف مذاهبها ومشاربها الغربية والشرقية، جاء في فترة سياسية عصيبة تعمل فيها اسرائيل لافراغ القدس من ابنائها المقدسيين لاستكمال تهويدها، بعد ان ركزت طوال سنوات على تهجير بالافضلية المسيحيين المقدسيين لتعميق استقطابها للغرب المسيحي الذي عملت طويلاً على تهويد جزء كبير من قراره.

ان بروز المسيحيين المشرقيين العرب الى واجهة المواجهة مع المشروع الصهيوني امر هام لكسب هذه المواجهة قومياً ودولياً، كما ان هذه التظاهرة الاجماعية حول تاكيد العروبة والانتماء القومي حسمت الى حد كبير نتائج الحرب اللبنانية التي دخلت اسرائيل على خطها من الباب الواسع، انطلاقاً من مخططها القديم - الجديد في تمزيق المجتمعات واثارة الفتن الطائفية وبصورة خاصة مخططها المعروف بمراسلات شاريت - بن غوريون - ساسون في الخمسينات حول تمزيق لبنان واقامة دويلات طائفية.

صحيح ان اسرائيل استطاعت ان تجذب الى مخططها ابان الحرب ميليشيات راهنت على الرافعة الاسرائيلية لتغيير التوازن الداخلي، لكن نتيجة الرهان الانتحاري كان كارثة على لبنان وعلى المسيحيين بصورة خاصة. وعند حدوث عدوان نيسان (ابريل) العام الماضي على لبنان تجلّت الوحدة الوطنية الشاملة في لبنان ضد العدوان وتضامناً مع المقاومة.

ان التظاهرتين المشرقيتين تمايزتا في المنطلق ولكن تلاقتا في النتائج الايجابية.

فقد انعقد في الاسبوع الاول من ايار، بعد عيد الفصح الشرقي، مجلس كنائس الشرق الاوسط برئاسة البابا شنودة بطريرك الاسكندرية للاقباط الارثوذكس وبحضور بطاركة الكنائس الانطاكية الارثوذكسية وبطريرك الروم الكاثوليك في دمشق وبطريرك الكاثوليك اللاتين في القدس ورؤساء الطوائف الانجيلية، ويمثل مجلس كنائس الشرق الاوسط تجمعاً مشرقياً مسيحياً وله مواقف مستمرة ضد تهويد القدس ومع عروبة فلسطين.

أهمية انعقاده هذه المرة انه اولا انعقد في دمشق، وفي هذه الظروف القومية الصعبة، وفي مناخ دمشق التي وصفها بيان مجلس الكنائس «هذه المدينة التاريخية العريقة حاملة لواء المستقبل العربي والمدافعة عن حقوق الامة».

وانه ثانياً انعقد في مرحلة بلوغ المخطط الصهيوني التهويدي للقدس منعطفات خطيرة. فاكد بيان مجلس الكنائس «التزامنا بقضيتنا العربية الواحدة التي هي قضية كل كنيسة وكل مسيحي مؤكدين التزامنا بالثوابت القومية بوجوب تحرير كل ارضنا العربية من الاحتلال الصهيوني واعادة الحقوق الوطنية المشروعة الى الشعب الفلسطيني بما فيها حقه في اقامة دولته على ارضه بعاصمتها القدس» رافضين ان يفرض الاحتلال وضعاً «على المدينة المقدسة واهلها من مسيحيين ومسلمين».

تظاهرة في سبيل القدس في وجه اسرائيل هذه هي الخلاصة الثانية. وتظاهرة مسيحية مشرقية داعمة ومثمّنة صمود سوريا.

ثم اضفى وجود البابا شنودة المعروف بوطنيته وموقفه الحازم من مسألة تهويد القدس وتحريمه الحج اليها قبل تحررها من الاحتلال، اضفى وجوده في دمشق وعلى رأس اجتماع المجلس الكنسي وتصريحاته وخطبه وعظاته، لوناً خاصاً اضافياً في الموقف المتشدد في الحق القومي والمجابهة. والبابا شنودة بنهجه هذا منذ اعتقاله لرفضه كامب دافيد ايام الرئيس السادات الى سياسته الحكيمة في تثبيت الوحدة الوطنية في مصر وعدم السماح بأي خلل يصيبها والتعالي على الجراح، يُشكّل افشالاً اخر لأيّ مخطّط معادٍ يراهن على لعبة الاقليات.

وهو يعتزّ بمصريته وعروبته وعراقة هذا الانتماء الوطني التاريخي. وجاءت اجتماعات مجلس الكنائس في دمشق بعد ايام من عيد الفصح الشرقي الذي تميّز هذا العام بخطب بطاركة المشرق واولهم البطريرك زكا عواص، في التصدي لمزاعم غربية حول الاصل اليهودي للمسيح بالحسم انه «ظهر في بلادنا وتكلم لغتنا الآرامية السورية القديمة وهو منا سوري ونحن نعتزّ به واليه ننتمي ولن ينجح اعداؤه في سرقته منا وفي تشويه طبيعته ورسالته».

وهذه اول مرة تتصدى الكنائس المشرقية بهذا الوضوح لا لتؤكد فقط انتماءها القومي بل لترفض «سرقة المسيح منها» وتتمسك بانتمائه هو الى تراثها وانتمائها معه الى هذا التراث.

في الاسبوع الذي تلا هذه التظاهرة المشرقية المسيحية في دمشق تمت زيارة الحبر الاعظم بابا روما الى بيروت حيث جرى له استقبال شعبي حاشد لم يشهد لبنان مثيلاً له من قبل وكان الهاجس، ورئيس الكنيسة الكاثوليكية الغربية معروف بانه، خصوصاً البابا الحالي يوحنا بولس الثاني، احد اقطاب الغرب الكبار، بل هو صانع اساسي للمتغيرات التي ادت الى فرط النظام الشيوعي بدءاً من بولونيا، ويسمى ببابا التغيير، فهو ليس مجرد رجل دين عادياً، بل احد اقطاب الغرب المعاصر، والى حد العالم، ان يأتي لبنان فيستقوي فيه طرف على طرف، او ان يُعنى في «تغريب» اللبنانيين وخصوصاً المسيحيين او وهو الذي تقيم دولة الفاتيكان علاقة مع اسرائيل في اتفاق حول الاماكن المقدسة والممارسات الدينية، قد تتساهل في هذا الامر بالنسبة للبنانيين، او ان يتبنى ما ورد في نداء السينودس قبل عامين من توجهات هي موضع خلاف وطني.

لكن الارشاد الذي صدر عن البابا في بيروت ورغم التحفظ الذي قد يكون لنا او لغيرنا على هذه الفقرة او تلك، الا انه بمجمله افترق عن بيان السينودس وصوّب الاتجاه وحسم في مسالتين هامتين الاولى الانخراط في وحدة المجتمع وبناء الدولة والتاكيد على الوحدة الوطنية للبنانيين والثاني وهو، حتماً مكمل للاول، عروبة المسيحيين والدعوة الى وحدة المصير مع العالم العربي والتضامن معه.

وهذا اول بيان من نوعه يصدر عن الفاتيكان حول عروبة المسيحيين المصيرية ويشكل موقفاً حكيماً وبناءً. ومع تقديرنا لصدوره عن الحبر الاعظم الا انه لا بد من التنويه باهمية الاستشارة الحكيمة للقاصد الرسولي في بيروت بابلو بوانتي الذي اجمعت الآراء على انه صاحب هذا التوجه بمداخلة قيمة في اجتماع السينودس من اجل لبنان.

ونحن من موقعنا القومي اللاطائفي المؤمن بوحدة المجتمع والمعلي القضية القومية الواحدة الجامعة فوق اي اعتبار، نرى ان ما تمّ بمجمله يصبّ في دفع وتمتين الوحدة الاجتماعية لشعبنا وسدّ كل الثغرات وتعزيز قدرة امتنا على ان تتوجه بكل قوتها لمواجهة الاخطار المصيرية بقلب واحد.

ونعتبر ان ما تمّ وتزامن في وقت قريب في دمشق وبيروت يشكل لا سداً منيعاً في وجه المخطط الصهيوني وافشالاً له وطياً لملف الحرب اللبنانية نهائياً فحسب، بل ايضاً يشكل حكماً قاطعاً على الحروب الصليبية وكل تراث المزاعم الاستعمارية الكاذبة حول حماية المسيحيين. وهو اصرار المسيحيين العرب على انهم ابناء هذا الوطن وضمانتهم الوحيدة هي انتماؤهم الوطني والقومي.

ونرى ان هذه هي اللحظة الانسب، والتي لا يجوز ان تمر، دون ان يحتضن بدفء العالم العربي، بل ومعه العالم الاسلامي، المسيحيين العرب المشرقيين. لانهم يشكلون معه مناعة لا تخرق في وجه مؤامرات الاستعمار والصهيونية وافشالاً لكل هذه المؤامرات ومزاعم ادعاءاتها. فمن القدس الى لبنان الى مصر، التلاحم هذا يشكل هزيمة المشروع الصهيوني والاستعماري.

ان ما اعلن من دمشق وبيروت ليس مجرد بيانات عادية، انه منعطف، مفروض ان يعي اهميته الحضارية والقومية والمصيرية اولو الامر في العالمين العربي والاسلامي لاعادة تقييم حقيقية ولرسم خطط جديدة ابداعية في احتضان دافىء لمن يؤدي احتضانهم الى ابعد من تعزيز الوحدة الداخلية الى ازياح المخططات المعادية وافشالها وتحقيق انتصار تاريخي وحضاري عليها.

انها لحظة نادرة فلا تفوت فرصتها التاريخية.